(الحب الصوفي.....وأنتروبولوجية التسامح)

- دراسة إبستومولوجية -

أ. محمد بن أحمد
ماجستير في القرآن الكريم
والدراسات الأدبية

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدًى ورحمةً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من تلا القرآن وعلمه، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم القيامة، أما بعد:

تسعى الصوفية وهي حركة روحية داخل الإسلام تعمل على تزكية الروح وتهذيبها والعمل على الرقي بها من خلال خبرات طويلة الأمد تراكمت لما يربو عن الأربعة عشر قرناً من الزمان ، في حياة الإسلام والمسلمين ، حتى صارت تلك الخبرات بمثابة مخزونٍ ثقافي هائل، يلعب دوراً كبيراً في تشكيل الوعي الحاضر بالنسبة للفرد والجماعة برحابة النظرة الصوفية ، وما انطوى عليه التراث الصوفي (الحي) من تسامح أدى دوماً إلى قبول الآخر (المختلف) والانفتاح عليه، ونبذ العنف في التعامل معه، ولم تفتأ مسيرة التصوف منذ البدايات الأولى تحيي مراسم الدين حين جعلوا من أنفسهم أنموذجاً للاحتذاء لم يلجأ يوماً للعنت والعنف، وإنما انطلق التيار الروحي مع امتداد التاريخ الإسلامي، بفضل أفراد (الأولياء) وجماعات (الطرق الصوفية) يجسد ملامح التسامح وينشر أواصر المحبة حتى أضحى دوماً ، ملمحاً أساسياً من ملامح الواقع الإسلامي في كل عصر

ومن هذا المقام يعد التصوف من أهم المدارس الإسلامية وأكثرها اهتماماً بالإنسان فهو يرى الإنسان نفحة الله في هذه الحياة وهو مظهر تجليات الحق بصوره وصفاته كما أنه محل تنزلات أنوار الحق وأسراره، وأن على الإنسان السير إلى الله من خلال استكشاف تلك الأنوار وتلك الأسرار والتفاعل مع تلك الصور والصفات الربانية التي تحلو بها الحياة وتطيب بها القلوب وتتزكى بها النفوس. حتى قال شيخ الصوفية الأكبر محيى الدين بن عربي (المتوفى 638هـ) في أبيات بلغت بالمحبة والتسامح مبلغاً عظيما:

لقد كنتُ قبلَ اليومَ أُنكر صاحبي إذا لم يكُنْ ديني إلى دينه دانى
وقَدْ صار قلبي قابلاً كل صُورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثان وكعبةِ طائفٍ وألواحِ توراةٍ ومُصحفِ قُرآنِ
أُدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجَّهت ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني[1]

ولم يكن ابن عربى متفرِّداً بين الصوفية فى تبنِّيه هذه (الرؤية) الرحيبة المتجاوزة للتعصب وضيق الأفق ، المحلقة فى سماوات المحبة والمعرفة بالله ؛ فقد قرَّرها من قبله ، وأكَّدها من بعده ، كبارُ الصوفية .. فمن قبل ابن عربى بأكثر من مائة عام ، كان الشيخ نجم الدين كبرى ، المستشهد بخوارزم (وهو يواجه - وحده- جيش المغول) سنة 618 هجرية ، يقرر أنه لايمكن لإنسان أن يحتكر الصلة بالله ويقصرها على نفسه ، وهو ما تعبِّر عنه عبارته البديعة : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق[2]. .. فلكل إنسانٍ طريقه إلى معرفة الله ، وليس من حق أحدٍ أن يحجر على الآخرين ويزعم أنه وحده على حقٍّ والآخرون على الباطل . وقد تكون هناك طريقة (أقرب) إلى الوصول إلى الله ، لكن ذلك لا يعنى بطلان الطرق الأخرى .. ويرى نجم الدين كبرى أن الطريق الأقرب إلى

الله ، محصورة فى عشرة أصول : التوبة ، الزهد فى الدنيا ، التوكل على الله ، القناعة ، العزلة، ملازمة الذكر ، التوجُّه إلى الله ، الصبر ، المراقبة ،الرضا[3] .وكلها كما نرى أصول تنشغل بالباطن وإصلاحه وترقيته ، ولا تلتفت إلى الآخر لنفيه أو إلغائه.

ومن أجل بلوغ هذه المرتبة من الصفاء الروحي والحب النقي يعتمد الفكر الصوفي على أساسيات معينة ينبغي على الإنسان التدرج من خلالها وهي ما تسمى في المدرسة الصوفية اليوم بالمنازل أو المقامات التي تصل بالمتصوف حين يرتقي في مدا رجها إلى مرتبة لا يملك من ورائها إلا أن يبسط أجنحة المودة والتسامح ولعل من أهم هذه المقامات نذكر:

1- **مقام مجاهدة النفس وإصلاحها:**

اجمع الكثير من العلماء والفلاسفة والباحثين في هذا الفكر أن علم التصوف من أهم العلوم اهتماماً بتزكية النفس ومعالجة أمراض الباطن، فالمجاهدة أصل من أُصول طريق الصوفية، وقد قالوا: من حقق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حُرم الوصول. وقالوا أيضاً: مَنْ لم تكن له بداية محرقة "بالمجاهدات" لم تكن له نهاية مشرقة. والبدايات تدل على النهايات. قال الإمام أبو حامد الغزالي: (إن للتصوف دور كبير في مداوات أمراض القلوب والنفوس)[4]، وقال الحارث المحاسبي (أن الله كشف لُنا أدوية نشفي بها أمراض نفوسنا ونفوس الآخرين ونواسي بها قلوب المحزونين من الخلق[5] ويقول أبو مغيث الحلاج (الصوفي يكشف عيوب نفسه ليعالجها في نفسه وفي غيره ويرتفع بمستوى حياة الروح ليجعل منها نموذجاً يحتذى به ليس فقط في أصحابه في الطريق بل وسائر الأمة.[6]

ومن هنا يكتشف الباحث أن للنفس فلسفة خاصة لدى المتصوفة فالصوفي يرى في النفس أنها مدعاة للأنا والأنا بحسب الدراسات النفسية لبعض المتصوفة تجلب للإنسان الكثير من الرذائل التي تحجبه عن غايته الحقيقية في هذا الوجود وهو ما يرى الصوفي أن عليه إزالة تلك الحجب التي تتعلق بالأنا لكي يتسنى له الاتصال بمحبوبه وقد قيل قديما((من قال أنا ذاق العنا)) إذاً الصوفي يعمل على تهذيب نفسه من خلال مخالفتها فلا يوافقها قط فيما تهواه قال الإمام عبد الوهاب الشعراني: إن رأس مال المريد مخالفة نفسه ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه فقد اهلكها وأهلكته .[7]وقال أيضا(إنما عمل المريد الدائم في تنظيف باطنه وظاهره عن الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله عزوجل كالغضب وعزة النفس والكبر والعُجب والحسد).[8]قال الشاعر : تهذب أ خلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لا له عزم ويكرم من لم يعرف الجود كفه ويحلم عند الغيظ من لا له حلم

2- **مقام الحب :**

تميزت المدرسة الصوفية بالحب والمحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولجميع المخلوقات. فالصوفي يحب كل مخلوق لله سبحانه وتعالى على هذه الأرض ويتقرب بهذا الحب إلى محبوبه الأعلى قال حجة الإسلام الغزالي ((من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب ومن ادعى حب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحب العلماء والفقراء فهو كذاب ومن ادعى حب الله وشكا البلوى فهو كذاب))[9]
وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه [10]

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع وقال الشبلي رضي الله عنه [11]

أهل المحبة شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد وعرفوا الله حق معرفته وتاهوا في عظمته وتحيروا في قدرته وغرقوا في بحر أنسه وتلذذوا بمناجاته. ثم أنشد :

ذكر المحبة يا مولاي أسكرني وهل رأيت محباً غير سكران

وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة فقال :

ملا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر، وقال ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده . [12]

3- مقام الصبر والرضاء:

الصبر والرضاء من المقامات التي يتدرج عليها السالك في طريق القوم وهما من الصفات التي أمر بها الله عزوجل عبادة التحلي بها ومن أهم الصفات التي اتصف بها نبي الرحمة - محمد صلى الله عليه وسلم- وربى صحابته الكرام عليها ولذا اعتبر مشايخ الطرق الصوفية الصبر من أهم المقامات التي تنهض بهمة السالك وتدفعه إلى الوصول والاتصال بحر الملك العلام

قال الدكتور : حسن عاصي في كتابه التصوف الإسلامي :

الصبر هو المقام الخامس وعرفه أنه انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة أعلاها . [13]

وقال أيضاً نقلاً عن عوارف المعارف الصابرون ثلاثة :

متصبر وهو من صبر من الله فمرة يصبر ومرة يجزع .

صبار وهو من يصبر من الله ولله فلا يجزع .

صبار وهو من كان صبره من الله ولله وبالله .[14]

وقال الشبلي :[15]

إن صوت المحب من ألم الشوق وخوف الفراق يورث ضرا

صابرا العبد فاستعلت به الصبر فصاح المحب للصبر صبر

وقال العارف بالله أحمد بن علوان [16] :

محب سرى محبوبه في فؤاده فيا حبذا ذاك الحبيب إذا يسري

فعانقه سراً أسير بجسمه وقال حبيبي هل أفك من الأسري

فقال له اصبر إنني لك مؤنس وإن مفاتيح الرغائب بالصبري

فقال حبيبي كيف اصبر والهوى قريني ونفسي والموسوس في الصدر

وكلاً إلى ما يشتهيه يقودني فعمري كركبان السفينة في البحري

4- مقام التسامح :

كان لا بد لأي باحث في الفكر الإسلامي الصوفي وهو يبحث في موضوع التسامح أن يمر على تلك المقامات وغيرها من المقامات التي يتدرج عليها المريد أو السالك لتصنع منه رجل سموماً بامتياز . فإذ كيف للطبيب أو المهندس أو للمعلم أن يصل إلى ما وصل إليه دون أن يمر بمستوى المراحل الدراسية المطلوبة للوصول إلى تخصص .

وهو الحال نفسه مع الصوفي المتسامح الذي لا يرى لنفسه وجود مع وجود الحق ومن لا وجود له هل يمكن له أن يفكر في الثأر لنفسه أو

يغضب لنفسه أو هل له أن يعمل على معاقبة الآخرين وهو لا يرى فيهم سوى صور الحق وصفاته وأسراره وأنواره. إذاً التصوف هو المدرسة الحقيقية التي ينبغي على جميع الخلائق أن تتعلم منه التسامح والمسامحة .

والتصوف الذي جعل السيدة رابعة العدوية تتسامح مع الرجل الذي كان يملكها ويعمل على تعذيبها وتجويعها هو نفسه التصوف الذي جعل الحلاج يدعو لمن حكموا عليه بالصلب والشنق بقوله اللهم اغفر لقومي فإنهم يقتلونني غيرة على دينك .

وخير ما نختم به هذا المقال هذه برواية وردت في الأثر وهي أن أحد العارفين كان له مريد يتتلمذ أو يتربى على يديه فأراد الشيخ أن يختبر مريده هذا فأخذه معه إلى السوق وكان الشيخ والمريد في حالة شديد من الجوع والعطش . وعند مرورهما في السوق جاء إليهما رحلاً يحمل معه الخبز والحلوى واللبن فأعطاهم فأكلوا حتى شبعوا فحمد الله تعالى على ذلك وفي اليوم الثاني مرر على نفس المكان فاصطدما الشيخ بنفس الرجل الذي أعطاهم الحلوى فوقع ما كان يحمله فاستدار الرجل وأخذ يضرب الشيخ حتى أدماه لكن الشيخ لم يرد وبعد انصراف الرجل قال الشيخ الحمد لله والشكر لله .

فقال له المريد كيف تحمد الله يا شيخ وقد أدماك الرجل .

قال الشيخ يا بني أن من أدماني اليوم هو نفسه من أعطاني الخبز والحلوى بالأمس فله الحمد وله الشكر .

قال الشيخ أحمد بن علوان - قدس الله سره- وهو يصف خطاب المحبوب للمحب :

أيها القلب الذي جـــن بنا اصطبر تبلغ بالصبر المنـــى
أنت لنا اليوم ومن كان لن كان مشغولاً عن الخلق بنا
أنت لنا اليوم ومن كـــــان لنا لم يقل مفتخراً قط أنـــا
أنت لنا اليوم ومن كان لـــنا كـــــان منا وإلينا وبنا
أنت لنا اليوم ومن كـــان لنا كان فينا فانياً قبل الفنـــاء
أنت لنا اليوم ومن كـــان لنا كان محبوباً لطيفـــاً فطنا
فاتخذ هذا سبيـــــلاً وليكن عندنا روحك والجسم هنا

والأمثلة على اتساع أفق الصوفي ورحابة نظرته لا يتسع لها المقام ولا يكفي لبسطها هذا المقال، وهي مبثوثة في ثنايا كتب القوم التي لا تحصى عددا.

خاتمة:

إن هذه الروح السمحة ، المتعالية ، التي تجلّت عبر التاريخ الإسلامي كتقاليد صوفية راسخة في ميداني العلم والعلم - أو النظرية والتطبيق العملي- هي معين لا ينضب لاستلهام القيم الروحية في المجتمع المعاصر. ولو غفل أهل الزمان عن الاستفادة من هذا الرصيد الروحي العظيم، فلا شك أن خسارتهم ستكون كبيرة، إن هذه الروح السمحة للتصوف ، لم تؤد إلى انعزال المتصوفة وتحليقهم في الفراغ ، بل كان للصوفية - دوماً- دوراً كبيراً في مجتمعاتهم. فقد عمل مشايخ الصوفية منذ وقت مبكر على إحياء الدين في النفوس ، وبثُّوا في العبادة سورة الروح المتأجِّجة فلم يؤد هذا التسامح الصوفي إلى السلبية الفردية والجماعية، وإنما عمل كنموذج نموذجي يرشِّد خطوات الفرد والجماعة في كل حين.

الهوامش

1- ابن عربي محيي الدين، الديوان، تحقيق:أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية بيروت،ط1، 1416هـ، 1996م
2- نجم الدين كبرى : الأصول العشرة . (دار سعاد الصباح - القاهرة 1993) ص 90
3- نجم الدين كبرى : فوائح الجمال وفواتح الجلال ، تحقيق يوسف زيدان،دار سعاد الصباح- القاهرة، ط1، 1993م، ص 95

4- الغزالي أبوحامد، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، دار الأندلس بيروت، ط7، 1967م، ض106

5- الأصفهاني أبونعيم، حلية الأولياء، ج10، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1409هـ، 1988م، ص102

6- ينظر:الحبيب الصلوي، مقال صحيفة الجمهورية، مصر، 14845، جوان 2010

7 - العجَم (رفيق)، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت ط1، (1999 م)، ص882

8- المرجع نفسه، ص882- 883

9- الغزالي (أبو حامد)، - إحياء علوم الدين، دار المعرفة- بيروت، ط1، (د.ت)

10- عبدالله بن المبارك، ديوان عبد الله بن المبارك، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع- مصر – ص37

11- رستناوي حمزة، نظرية الحب والإتحاد في التصوف الاسلامي، مجلة الحوار المتمدن، العدد1308، سبتمبر2005

12- القشيري أبو القاسم، الرسالة- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، 451

13- حسن عاصي، التصوف الإسلامي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1994. ص140، 141.

14- السهروردي (شهاب الدين) عوارف المعارف، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمد بن الشريف، دار المعارف- القاهرة ط1 (د. ت)، 285

15- ينظر:الحبيب الصلوي، مقال صحيفة الجمهورية، مصر، 14845، جوان 2010

16- المرجع نفسه